العقل الإيماني

Mohamed Rabie

العقل الإيماني هو عقل إنساني عادي تمت محاصرته منذ الصغر، وإقناعه بالإيمان بأفكار قد تكون دينية أو قومية أو ماركسية أو رأسمالية، وحرمانه من حرية التفكير انطلاقا من طبيعته التواقة إلى معرفة الجديد من الأفكار والآراء والحقائق العلمية .ومع الحرمان من حرية التفكير، يُحرم العقل من الإسهام في خلق أشياء مادية وحسية جديدة بناء على ما لديه من مواهب وقدرات خلاقة، وما يعيشه من تجارب حياتية متنوعة؛ وهذه تجارب تشمل المرور بدهاليز النجاح والفشل، الأمل وخيبات الأمل، الفرح والحزن، القوة والضعف، النصر والهزيمة، التعامل مع الجهل والعلم، صفاء الذهن وغيبوبة الوعي، والفقر والثراء الذي يشمل الفقر الروحي إلى جانب الفقر المادي، والثراء الفكري إلى جانب الثراء المالي، وثراء التجربة الإنسانية إلى جانب فقر تلك التجربة .ويهدف هذا البحث إلى شرح تفاصيل بعض الأحداث التي تعكس كيف يتصرف هذا العقل حيال ما قد يسمع من أقوال، وما قد يقرأ من إشاعات وأكاذيب، وما قد يشاهد على شاشات التلفزيون من ادعاءات عقائدية إيمانية .

ويتم تحويل العقل الطفولي من عقل مسكون بغريزة حب استطلاع لا تحدها حدود إلى عقل منغلق على نفسه من خلال غرس أفكار إيمانية مقدسة أو شبه مقدسة في خلاياه لا تخضع للنقد أو التساؤل أو التأويل، وتنشئته على التمسك بتقاليد وقيم ضعيفة التطور .ومن خلال غرس مثل هذه الأفكار والقيم في عقل الطفل قبل أن يتفتح على الدنيا ويتجول في شعابها وينهل من علومها، يتم حرمان صاحبه من التجوال في عالم الفكر والخيال الواسع، وعزله عن غيره من عقول منفتحة على ما يسكن خارجها من أفكار وعلوم وتقاليد ومعتقدات وأنماط حياتية .ومع أن العقل الإيماني هو عقل إنساني كثيرا ما يتعاطف مع أصحاب الحاجات المادية والروحية، إلا أنه يتمسك بتقاليد جامدة تعادي الحرية، وكأن الحرية وباء فتاك يهدد الإيمان والمؤمنين بالفناء .

ومن أجل ترويض العقل الإيماني على استئناس العزلة عن عالم الفكر المتحرر من المحرمات، يتم ربطه بجماعة تؤمن بما يؤمن به من معتقدات، وتلتزم بما يلتزم به من مواقف وسلوكيات .وهذا يجعل العقل الإيماني يعيش في جيتو ثقافي يحرمه من رؤية ما يسكن خلف حدود عالمه من أفكار ونظريات ومعتقدات وثقافات مختلفة عما لديه .ولما كان العالم الذي يسكن خلف أسوار الجيتووات الثقافية لا يتوقف عن التحول والتطور، فإن العقل الإيماني يجد نفسه يتخلف كل يوم عن العالم الذي يكتنف حياته ويؤثر فيها، ما يجعله يشعر مع تقادم الأيام بالغربة عن ذلك العالم وعلومه وأحداثه، والاغتراب عنه، والعداء له أحيانا .

إن تحويل العقل الطفولي البريء إلى عقل إيماني مغلق يقود العقل هذا إلى الدوران حول نفسه في حركة لا إرادية تُضعف غريزة حب الاستطلاع لديه، كما تضعف قدراته على التفكير الواعي في قضايا الحياة وتحدياتها .ومع تراجع غريزة حب الاستطلاع بشكل مضطرد، يصبح العقل عاجزا عن التفكير بحيادية وعلمية تأخذ البعد الكوني والإنساني في الحسبان، ما يدفعه نحو التفرقة ضد كل من يختلف معه في القناعات والمواقف الإيمانية، وكراهيته أحيانا .لذلك نلاحظ أن العقل الإيماني عامة يشك في إيمان غيره من البشر وفي ومعتقداتهم ونواياهم، ويلجؤ إلى الخرافات والمعجزات والأساطير ليحمي نفسه من الأفكار الخارجة عن ذاته .ولما كان من طبيعة المعتقدات الإيمانية أنها لا تتطور إلا نادرا، وأنها حين تتطور لا تتغير بالقدر الكافي لتتعايش مع تغير الأحوال، فإن كل فكر جديد يتناقض معها يصبح، من وجهة نظر العقل الإيماني، أكاذيب أو أوهام تعكس جهل أصحابها أو ضلالهم .

إن ثبات المعتقدات الإيمانية عامة، وعدم خضوعها لقوانين التطور والتغير الكونية والاجتماعية والعلمية، يجعل العقل الإيماني ضعيف القدرة على التطور كذلك؛ وهذا يجعل من الصعب عليه، بحكم تكوينه العقائدي، أن يدرك طبيعة المتغيرات ومغزاها .ومع تتابع الأيام والسنين، يتم نفي العقل الإيماني من التاريخ، ما يجعله يلجأ إلى حضن الماضي والتراث كي يحتمي به، ويتستر خلف جدرانه من أنوار الحياة الساطعة وتعقيداتها المتنامية .إذ ليس في مقدور العقل الإيماني أن يعي أن الماضي هو اللحظة التي نتجاوزها كل لحظة تمر من عمر الزمن، وأن اللحظة القادمة هي جزء من المستقبل الذي يسهم مئات الملايين من البشر في تشكيله .وفي ضوء الهروب من الحاضر إلى الماضي، يجد هذا العقل نفسه مضطرا إلى الاستسلام للقضاء والقدر، والاتجاه نحو التواكل، والاستكانة للظلم والفقر بوصفه إرادة إلهية، والإيمان بالحظ والنصيب .وهكذا يتنازل العقل الإيماني عن حقه الإلهي في استخدام ملكاته ومواهبه لإثراء حياته وحياة غيره من البشر، وتأمين مستقبل أفضل له ولأولاده وأحفاده من بعده .

وعلى سبيل المثال، مع أن ابن تيمية اعترف بأنه تأثر بفلسفة أبي الحسن البصري الذي كان يدعو إلى العقلانية، كما اعترف بتأثير ابن رشد في أفكاره، إلا أنه انتصر لفكر أحمد بن حنبل القائل بتقديم النقل على العقل، إذ قال ابن تيمية إن" العقل أداة نقل وتنزيل، وليست أداة فهم وتأويل ."لكن حين يفتي ابن تيمية بتقديم النقل على العقل، ويقول إن" العقل أداة نقل وتنزيل، وليست أداة فهم وتأويل"، فإنه يلغي دور العقل في التفكير والتدبير، ويحرم المؤمن من فهم تعاليم دينه وعلوم الدنيا .ويمكن القول إن حكم ابن تيمية هذا ربما كان أقسى ما يمكن أن يصدر من أحكام تنص على إغلاق العقل ونفيه من حياة المؤمن، علما بأن ابن تيمية، بغض النظر عما إذا كان قد أصاب أم أخطأ، لم يتوصل إلى النتيجة هذه إلا باستخدام عقله .وهذه هي معضلة المسلمين مع الأئمة والفقهاء، إذ فيما يمنحون أنفسهم الحق في استخدام عقولهم، والتوصل إلى أحكام قاطعة كحد السيف، يُحرّمون

على كل ذي عقل أن يستخدم عقله، وتكفيره إذا تجرأ على مخالفة أحكامهم التي تتنافي مع منطق التاريخ والزمن والعلم.

إن رأي ابن تيمية هذا يشبه كثيرا رأي (أنسلم) أحد كهنة القرن الحادي عشر المسيحيين الذي قال،" إنني لا أسعى أن أفهم كي أومن، وإنما أومن كي أفهم ...أني أعتقد أن عليّ أن أومن أولاً، وإلا لن أفهم"، وكأنه يقول إن من لا يؤمن لا يمكن له أن يفهم شيئا .وهذا يعني أن الإيمان، بالنسبة للكاهن أنسلم وابن تيمية، يسبق الفهم، ما يجعل الإيمان هو الطريق الوحيد إلى إدراك الحقيقة .ومع أنه من الممكن أن يقوم الإيمان بإيصال مؤمن إلى إدراك الحقيقة الإلهية، إلا أن الإيمان بهذه الطريقة يغلق الطريق المؤدية إلى الحقيقة العلمية وما يختلف عن الإيمان الديني من حقائق .لذلك نلاحظ أن كل مؤمن يريد أن يؤمن، ولا يريد أن يفكر؛ لأن الإيمان سهل من شأنه أن يريح النفس ويزيل شبح الإشكاليات، لكن التفكير صعب من شأنه أن يقلق النفس ويزيد عدد التحديات.

وهذا يطرح سؤالا في غاية الأهمية :ماذا يتعلم المؤمن من الاعتقاد بدين عن علوم الدنيا والحياة؟ نعم، إن المؤمن يتعرف على واجباته تجاه الإله الذي يؤمن به والأحكام المنظمة للعبادات والعلاقات الإنسانية والمثل الحميدة، لكنه لا يتعلم شيئاً عن قوانين الحياة ومعضلاتها وكيفية التعامل مع تحدياتها المتزايدة عدداً وتعقيداً يوماً بعد يوم؛ وهذا يعني أن علوم الدين يجب أن تكون مكملة لعلوم الحياة، وليس العكس .ومع أنه لا غنى لمؤمن عن أي منهما، إلا أن مصلحة كل مؤمن تُملي عليه أن يدرك أنه ليس بالإمكان جمع علوم الدين مع علوم الدنيا في منظومة فكرية واحدة، ما يوجب الفصل بينهما، لأن للإيمان مجاله، وللعلم مجاله .لكن لا بد من تطوير آلية للتنسيق بين علوم الدين وعلوم الدنيا حتى يكون بإمكان المجتمع أن يتجنب حدوث صدام بين الإثنين، لأن الصدام والنزاع يؤدي إلى تدمير النسيج الاجتماعي والثقافي للمجتمع الواحد، ويسهم في تفكيكه وتجزأته إلى مجتمعات متنافرة .

من ناحية ثانية، يتسبب الزمن في حال ثباته في دفع بعض أصحاب العقول الإيمانية نحو الانطواء على النفس والعزلة، ودفع بعضهم الآخر نحو التطرف، إذ ليس بين الانطواء والتطرف مكان وسط بالنسبة للعقل الإيماني .فالانطواء يعكس استسلاما للواقع بكل مظالمه والقبول بإملاءاته، فيما يعكس التطرف خروجا على الواقع في حالة غضب بهدف تغييره، ولكن من دون استيعاب حقائق الواقع وأهدف التغيير ومتطلباته .وفيما تتسبب العزلة الطويلة في إضعاف قدرة العقل الإيماني على وعي حقيقة ما يفعل، وتبعات ما يفعل على حياته وحياة غيره من البشر، يتسبب الانطواء والتطرف في تحويل العقل الإيماني إلى عقل تابع وسهل القيادة والتوجيه للقيام بما يخدم رأس الهرم العقائدي .وهنا نود أن نوجه نظر القارئ إلى أننا حين نتكلم عن العقل الإيماني، فإننا لا نتكلم عن العقل الذي يؤمن بدين من الأديان فقط، وإنما نتحدث أيضا عن العقل الذي يؤمن بأيديولوجية سياسية اجتماعية، أي

بالقومية، ومن يؤمن بأيديولوجية اجتماعية اقتصادية، أي بالماركسية أو برأسمالية السوق الحر .مع ذلك، سوف يكون التركيز في هذا البحث على العقل الذي يؤمن بدين بوجه عام، وبخاصة الإسلام.

أثناء لقاء عادي في أحدى قاعات الدراسة مع طلبة الماجستير في العلاقات الدولية، تطرق الحديث عن "الأولياء "ودورهم في حياة الناس، ما جعل بعض الطلبة يبدي تأييده لزيارة ضروح الأولياء والتبرك بهم، ويبدى البعض الآخر شكه في قدرات الأولياء على مساعدة من يزورهم من الأحياء ويتوسلون إليهم .وقد جاءت مداخلتي في النقاش كالتالي: لو قام أحدكم بدراسة تاريخ الأولياء في مدينة عربية أو إسلامية، فإنه من شبه المؤكد أن يكتشف أن أغلبهم مات وهو فقير ومريض، وأنه ربما كان مصاباً بعاهة مستديمة .وهذا يعني أن الولي هذا لم يكن بإمكانه وهو ما زال على قيد الحياة أن يساعد نفسه، فهل من الممكن لولي أن يساعد غيره من الناس بعد أن يكون قد مضى على وفاته عشرات أو مئات السنين؟

لكن قبل أن أنهي هذه المداخلة، قاطعتني فتاة فجأة، كانت في الرابعة والعشرين من العمر، ومن أذكى الطلبة الذين درستهم في الجامعات العربية والأمريكية. بدأت إلهام مداخلتها قائلة بثقة،" لكن من وجهة نظر الله ...وبعد أن أكملتْ مداخلتها عدلت جلستها في مقعدها، ما جعلها تبدو راضية تماما عما قالت وفعلت .أدرت وجهي بعيدا عنها، وخاطبت بقية الطلبة قائلا: ألا تتفقون معي على أننا ربما كنا من أكثر الناس حظا في هذا اليوم، إذ لدينا زميلة تعرف وجهة نطر الله؛ ثم نظرت إلى إلهام وخاطبتها قائلا، أرجو ان تشرحي لنا كيف تعرفت على وجهة نظر الله، وكم من الوقت قضيت معه حتى تتمكني من معرفة وجهة نظره، ومن يعرف وجهة نظر إنسان أو ولي أو إله لا بد وأن يعرف الكثير عما يجول في خاطره، لذا أرجو أن تخبرينا عن علاقتك الخاصة مع الله وعما دار بينكما من حوار . صُدمت إلهام من السؤال، ما جعلني أشعر بأنها تمنت في تلك اللحظة أن تنشق الأرض وتبتلعها .لكن قبل أن يرفع طالب يده للتعليق على الحديث، قلت مخاطبا الطلبة، أراكم الأسبوع القادم، وخرجت من قاعة الدراسة بسرعة على غير العادة .ويعود السبب في خروجي المفاجئ من قاعة الدراسة إلى رغبتي في دفع الطلبة نحو التفكير الواعي فيما قيل قبل اتخاذ موقف منه، وذلك بدلا من اللجوء إلى ردود الفعل التي تأتي عادة تلقائيا بسبب ما يكون قد ترسخ في وجدانهم الثقافي من معتقدات بحكم عمليات التربية والتثقيف والتزييف الأيديولوجي.

كانت لغة التدريس في الجامعة المعنية هي اللغة الإنجليزية، ومع أن اللغة هي وسيلة في التعبير وطريقة في التفكير، إلا أن معرفة إلهام الفائقة باللغة الإنجليزية لم تؤثر على طريقة تفكيرها، إذ تحدثت بعقل إيماني لا يَسأل عما يسمع، ولا يتوقع أن يُسأل عما يقول، ما دام ما يقول ذا علاقة بالإيمان .جاءت إلهام إلى مكتبي بعد أيام لتقول إن ما حدث في قاعة الدراسة أثر في تفكيرها كثيراً، ما جعله يُغير مجرى حياتها إلى الأبد .لكن الأحداث جاءت فيما

بعد لتثبت أنه لم يتغير شيء في حياتها، إذ اضطرت بعد سنوات، بناء على ضغوط والدها، أن تتزوج من تاجر تقليدي متزمت لا علاقة له بعلم أو فكر .ومع أن إلهام كانت حينئذ قد قاربت على الانتهاء من دراسة الدكتوراه، وبدأت تدرس في جامعة وطنية، إلا أن زوجها فرض عليها أن تلبس الحجاب، وأن تمتنع عن الحديث على التلفون مع رجل، وأن لا تجلس مع زميل أو طالب من طلبتها في كافيتيريا الجامعة .

كتب صديق على صفحته على الفيسبوك ما يلي :

إعجاز رياضي في القرآن الكريم

1. ذكرت كلمة الأيام 365 مرة، وهو عدد أيام السنة .
2. ذكر اليوم منفرداً 30 مرة وهو عدد أيام الشهر.
3. ذكر القمر 12 مرة وهو عدد الأشهر القمرية .
4. ذكر الشهر 12 مرة وهو عدد أشهر السنة.
5. ذكر الإيمان 25 مرة والكفر 25 مرة أيضاً.
6. ذكرت الدنيا 115 مرة والآخرة 115 مرة.
7. ذكرت الملائكة 88 مرة والشيطان 88 مرة.
8. ذكرت كلمة الناس 50 مرة والأنبياء 50 مرة.
9. ذكر الرجال 24 مرة والنساء 24 مرة.
10. ذكرت الحياة 145 مرة والموت 145 مرة.
11. ذكرت الحسنات 167 مرة والسيئات 167 مرة.
12. ذكرت السماوات 7 مرات على عددها.
13. ذكر العقاب 117 مرة والمغفرة 234 مرة مقدار الضعف.

بعد أن قرأت هذا الجدول من المعلومات التي تبدو مذهلة، والتي تستهدف تعزيز ما يقال عن إعجاز القرآن، رجعت إلى القرآن لأتأكد من صحتها، لأن الافتراء على الدين، وتحريف المعلومات الواردة في القرآن لا يتوقف، لأن

قضية تزييف وعي المؤمنين قضية هامة للغاية؛ إذ بدونها لا يمكن لفقيه أو حاكم أن يفرض سطوته على الشعب . كان في الماضي من الصعب التأكد من صحة معلومات كهذه، لأن عملية التأكد كانت تتطلب إجراء بحوث مضنية تستغرق فترات تطول أحيانا، لكن لحسن حظ المؤمنين والبسطاء من الناس، وسوء حظ الدجالين، أصبحت عمليات البحث في أمور كهذه سهلة، لا تستغرق سوى دقائق معدودة .وبعد التدقيق، وجدت أن كافة الأرقام المذكورة أعلاه غير صحيحة فيما عدى رقم واحد، هو 115 الذي يشير إلى عدد مرات ذكر الدنيا، لكن الرقم الخاص بالآخرة كان غير صحيح .

وعلى سبيل المثال، ذُكرت كلمة الأيام "مرتين وليس 365 مرة؛ وذكرت كلمة يو 75 مرة، وليس 30 مرة؛ وذكرت كلمة القمر 55 مرة وليس 12 مرة؛ وذكرت كلمة" الشهر 6 مرات وليس 12 مرة؛ وذكرت كلمة الإيمان 16 مرة وليس 25 مرة؛ وذكرت كلمة الكفر 15مرة، وليس 25 مرة؛ وذكرت كلمة الملائكة 53 مرة، وليس 88 مرة. أما كلمة الناس فقد ذكرت 190 مرة وليس 50 مرة؛ وكلمة الأنبياء ذكرت3 مرات فقط وليس 50 مرة؛ وذكرت الحسنات مرتين وكلمة السيئات 15 مرة. أما كلمة العقاب فقد ذكرت 16 مرة، وليس 117 مرة؛ فيما ذكرت كلمة المغفرة 4مرات وليس 234 مرة .أما كلمة السماوات فقد ذكرت 185 مرة وليس 7 مرات كما يدعي مخترع" إعجاز رياضي في القرآن الكريم. وهذا يبين مدى التزييف والافتراء الذي يبدو أن بعض المسلمين على استعداد للذهاب إليه كي يقنعوا أنفسهم، ويُقنعوا غيرهم من المؤمنين بعظمة كتاب لا يحتاج لمخلوق كي يثبت عظمته .وليعذرني الباحث إن وجد أحد الأخطاء في الأرقام التي توصلت إليها، لأن بعض الكلمات تتكرر مرة إضافية في فهرس القرآن بوصفها عنوان لسورة قرآنية، لكنها لا تدخل ضمن العدد الذي جاء ذكره في النص القرآني، مثل كلمتي القمر والناس.

ولما كنت أعرف الصديق الذي قام بوضع الجدول هذا على صفحته على الفيسبوك معرفة جيدة، وأعرف أنه لا يمكن أن يشارك في عمليات تزييف أو تضليل لها علاقة بالقرآن، فقد كان علي أن أجد تفسيرا لهذا التصرف الخاطئ الذي يضر بسمعته، ولا ينفع أحدا .لكن قبل محاولة إيجاد تفسير لهذا التصرف الذي يسيء إلى الدين، أود أن أضع بين يدي القارئ شيئا آخر، ذا طبيعة مختلفة، قام نفس الصديق بنشره على صفحته أيضاً؛ إذ على الرغم من اختلاف طبيعة هذا النص، إلا أنه يخدم نفس الهدف ...محاصرة عقل المؤمن وتزييف وعيه .

قال رجل ذات مرة :

لا إله إلا الله عدد ما كان

لا إله إلا الله عدد ما يكون

لا إله إلا الله عدد الحركات والسكون

وبعد مرور سنة كاملة كررها، فقالت الملائكة :إننا لم ننتهي من كتابة حسنات السنة الماضية بعد.

تخيل لو قمت بنشرها ورددها العشرات بسببك كم سيكون لك من الأجر.

وعلى افتراض أن ما قاله الرجل المعني، ودعنا نطلق عليه اسم" نبيل"، كان صحيحا، فهل من الضروري أن ينال نبيل كل ما تشير إليه هذه القصة الطريفة من حسنات لا عدد ولا حصر لها؟ إن من المحتمل أن ينال نبيل بعض الحسنات، كما أن من المحتمل أن لا ينال حسنة واحدة، لأن العبرة في النية والعمل، وليس في الترديد .فإذا كانت نية نبيل سليمة، وأنه كان رجلا أميناً ومُحسناً، فإنه - بناء على منطق هذا الادعاء - من المؤكد أن يحصل على حسنات إضافية، لكن إذا كان نبيل رجلا سيئا، وأن التسبيح بالنسبة له وسيلة لاستجداء الحسنات، والتوسل إلى الله كي يصفح عن سيئاته، فإنه من غير المحتمل أن يحصل على حسنة واحدة، بل من المتوقع أن ينال عقابا يوازي ما ارتكب في حياته من سيئات ومعاصي، قد بكون تعميم هذه القصة المزيفة نفسها جزءا من تلك المعاصي .

مرة ثانية، على افتراض أن ما قاله نبيل صحيحا، وأن ذكر الله، بغض النظر عن نية المؤمن الذي يردده، يعود على المؤمن المعني بحسنات كثيرة كما تشير هذه القصة، فمن يا ترى رأى الملائكة تسجل الحسنات، ومن سمعها تقول" **إننا لم ننتهي من كتابة حسنات السنة الماضية بعد** ."هل وجد إنسان في الماضي أو الحاضر يستطيع أن يثبت أنه رأى الملائكة، أو أنه سمعها تتكلم، وبأي لغة كانت تتكلم، وكم عدد أولئك الملائكة الذين يبدو عليهم الكسل؟ نعم، يبدو عليهم ليس الكسل، وإنما العجز عن أداء المهمة المناطة بهم، فكل ما عليهم هو ضرب عدد حسنات كل ترديد بمئة أو ألف كما تراه الملائكة مناسبا، وذلك خلال بضع ثواني، وليس أيام أو حتى ساعات.

إن العقل الإيماني يسارع حين يقرأ قصة كهذه إلى تعميمها، لأنه يحب الخير لنفسه، وربما لغيره من المؤمنين ، ولأنه يسعى إلى كسب المزيد من الحسنات وضمان دخول الجنة بأي ثمن .لكن المؤمن الذي تمت محاصرة عقله وتزييف وعيه، وأحيانا إفساد ضميره منذ الصغر، يتصرف عادة، على الرغم من إمكانية أن يكون في منتهى الذكاء، كإنسان أعمى لا يرى، وجاهل لا يقرأ، وعقل معطوب لا يفكر ولا يفهم ما يقرأ إن قرأ، وأبله لا تعنيه معاني الكلمات كي يسأل عنها ويستفسر عن مغزاها .وهذه كلها سمات تصف العقل الإيماني الذي قامت التقاليد والقيم الثقافية والتراث الفقهي المتزمت وأنظمة القمع الفاسدة بمحاصرته وتقزيمه، وتزييف وعي صاحبه منذ الصغر .

إن تعميم ادعاءات كالتي جاء ذكرها أعلاه لا تصدر عادة إلا عن شخص يجمع عمق الإيمان وسذاجة العقل، أو تاجر يتاجر بالدين، فتجارة الدين هي أكثر أنواع التجارة رواجا في عهود التخلف والانحطاط كتلك التي نمر بها

اليوم .لكن المؤمن هذا، ككل المؤمنين من أمثاله، لا يقرأ قرآنا، ولا يدقق في معلومة، ولا يكترث لحقيقة ذات علاقة بالدين، وإنما يعتبر كل ما يوحي بعظمة الدين صحيحاً، ومن الواجب الإيمان به والدفاع عنه وتعميمه .لكن القيام بتعميم معلومة خاطئة بوصفها حقيقة علمية أو دينية دون التأكد من صحتها أمر خطير، لا يجرؤ على القيام به إلا جاهل تَحوّل، بفعل إيمانه الأعمى، إلى إنسان أحمق؛ أو شخص انتهازي ضل طريق الصواب، واختار طريق الكذب والاحتيال سعيا لخدمة لأسياده، واستغلال المؤمنين والإثراء على حسابهم .وهذا يذكرنا بقول ابن رشد: "إذا أردت أن تتحكم في جاهل، عليك أن تغلف كل باطل بغلاف ديني ."

ومما يجعل مثل هذا العمل في غاية الخطورة أن من يقوم به من رجال ونساء يكونون في غالبية الأحيان محل ثقة عامة الناس بسبب مواقعهم الاجتماعية، أو شهاداتهم الجامعية، أو قدراتهم الخطابية .لكن نتيجة هذه الأفعال جميعاً هي تكريس التخلف الفكري والثقافي بين المؤمنين، وتضييق الخناق على العقل المؤمن، وتعميق الإيمان القائم على أسس مزيفة ووعي كاذب، والتأثير في مواقف المؤمنين بطريقة سلبية تُسهم في نشر الأوهام وشيوع التواكل في المجتمع، وقد تدفع الكثير منهم إلى كراهية المشككين في مثل هذه المغالطات، ومناصبتهم العداء، وبالتالي التشكيك في أمانة العلماء والعقلاء والمفكرين، وكل من يحرص على الدين وعقول المسلمين ومصلحة المجتمع .

إن العقل الإيماني لا يحتاج إلى برهان كي يصدق مقولة تستهدف تأكيد مصداقية دينه، وتَعدُه في الوقت ذاته بالمزيد من الحسنات والمغفرة؛ لذلك يتحمس لكل ادعاء من هذا النوع، ويُسرع إلى تعميمه بين الناس كأنه اكتشاف علمي عظيم .لكن العقل الإيماني هذا لا يقوم في الواقع بتعميم ما يعزز مصداقية القرآن، أو يفيد المؤمنين، وإنما يقوم بتعميم ادعاءات كاذبة غير عقلانية تجعل العقلاء من الناس تشك في قدراته العقلية وفي صدق إيمانه .إذ حين يكتشف مؤمن واعي يفكر بطريقة علمية أن ما وصله من معلومات ليست سوى أكاذيب، فإن من المؤكد أن تتغير نظرته إلى التراث الفقهي ورجاله عامة، وعقلانية المؤمنين بذلك التراث والمروجين له، وأسس عملية الإيمان نفسها .

حين يقول مسلم بعد ذكر اسم أحد الصحابة" رضي الله عنه "فإنه يعني بقوله هذا، من دون وعي، أنه يدعو الله أن يرضى عن الصحابي المذكور، وهذا أمر مُستحب من حيث المبدأ .لكن كلمات هذا الدعاء تتحدث عن الماضي وليس عن الحاضر أو المستقبل، وكأن المسلم المعني يقول إنني أعرف أن الله رضي عن هذا أو ذاك من الصحابة، علما بأنه ليس بإمكان مسلم أو غير مسلم أن يعلم من يرضى الله عنهم، ومن يغضب عليهم .هذا هو العقل الإيماني الذي لا يفكر في معاني الكلمات حين يلفظها، لأنها تتعلق بأمر من أمور الدين التي يعتبرها مسلمات لا تحتاج إلى تفكير، وحقائق لا يُطالها أدنى شك .ولما كنت أعترف بانني اجهل تماما أسماء من رضي الله عنهم من الصحابة

والتابعين وغيرهم من المسلمين، لأن الله لم يوحي إليّ بذلك، فإنني لا أستعمل تعبير" رضي الله عنه "عند ذكر اسم صحابي أو إمام، ولا أدعو الله أن يرضى عنهم لأنني لا أعرف ما فعلوه في حياتهم من أمور تستحق الدعاء لهم .

من ناحية ثانية، سوف يلاحظ القارئ الكريم أنني لا أستخدم تعبير" قال رسول الله "حين أتكلم عن حديث نبوي، وإنما استخدم تعبير" في حديث يُنسب إلى الرسول ."ويعود السبب في هذا الأمر إلى أنه من غير الممكن أن يكون حديث من الأحاديث المنسوبة للرسول قد وصل إلى جامعي الأحاديث بنفس الكلمات التي قالها الرسول، وبنفس الترتيب والدقة، لأن عملية جمع الأحاديث بدأت بعد وفاة النبي بنحو 130 سنة، ما يعني أن كل حديث مر على خمسة أجيال على الأقل قبل أن يصل إلى جامع الأحاديث الذي أشرف على تدوينها .إن القبول بصحة هذه الأحاديث ودقتها يعني الإيمان بأن أول رواة الحديث كان قد سمع الحديث عن الرسول في حياته وحفظه على الفور، وأنه احتفظ بما سمع بدقة متناهية لمدة 25 سنة على الأقل قبل أن يسمع الراوي الثاني نفس الحديث منه، ويحفظه حال سماعه ويعزوه إليه بالاسم وبنفس الدقة التي سمعها به، وأن هذا احتفظ بالحديث لمدة 25 سنة أخرى، وأنه لم ينسى حرفا ولم يخطئ في كلمة قبل أن يسمع الحديث الراوي الثالث عنه، ويحفظه حال سماعه، وينقله ويعزوه إليه بالاسم واسم الراوي الأول بعد نحو 25 سنة أخرى بنفس الكلمات والدقة والترتيب ...وهكذا حتى نصل إلى الراوي الأخير بعد نحو 130 سنة .

وحيث إنه لم يكن في زمن الرسول أو الصحابة أو التابعين مدارس لتحفيظ الأحاديث النبوية، فقد أصبح من شبه المستحيل أن تضمن عملية العنعنة صحة حديث واحد .وهنا تجدر الإشارة إلى أن الرسول، كما يقول التراث، حث على عدم جمع الأحاديث، وأن الخليفة عمر قام بمصادرة ما جمعه أبو هريرة وحرقها، إضافة إلى جلده ونفيه لأنه اتهم بالفساد وقبول الرشوة .أما عملية العنعنة فهي العملية التي تُسمى عملية" الإسناد"، أي قول الراوي أنه ينقل عن فلان بن فلان الذي نقل عن فلان بن فلان بن فلان، والذي نقل بدوره عن فلان بن فلان إلى ألخ ...أنه سمع الرسول يقول كذا وكذا. وفي الواقع، مع أنني قرأت ما يزيد على ألفي حديث في كتب الحديث والتاريخ، إلا أنني لم أقرأ حديثا واحدا حظي بالإجماع من حيث الكلمات والنسق والمحتوى .لذلك، ليس بإمكاني أن أقول" قال رسول الله"، لأنني لم أسمع من الرسول ولم أقرأ شيئا كتبه بيده، ولأن عملية الجمع التي تقوم على العنعنة ليست علمية، ما يجعلها تتنافى مع منطق العقل وقدرة الإنسان على الحفظ، وأن الكثير من الأحاديث المدونة في الكتب تتعارض مع ما جاء في القرآن، كما أن طريقة العنعنة هذه تفترض أن الرواة جميعا تحدوا طبع النسيان الذي يلازم الإنسان أينما كان، وتحدوا عثرات الزمان، وتجاوزوا الأهواء الشخصية والانتماءات المذهبية والعشائرية والضغوطات السياسية .

اتصلت معي امرأة من فلسطين قبل نحو خمسة سنوات عبر الفيسبوك، ودعنا نطلق عليها اسم" وفاء"، حيث طلبت مني تزويدها ببعض المعلومات التي احتاجتها حينئذ لاستكمال بحث كانت تعده للحصول على درجة الدكتوراه .وفي ضوء عشقي للتعليم الجامعي، وحبي لطلبة العلم عامة، وإيماني بأهمية العلم والتعليم لم أبخل على وفاء بما كان لدي من معلومات .إن موقفي من العلم هو" :إن المعرفة التي لا نشارك فيها غيرنا من الناس هي معرفة ضائعة، وإن ما لدى كل عالم من معرفة هي أمانة وضعها الله بين يديه، عليه أن يوصلها إلى أصحابها ."غابت وفاء نحو سنتين، ما جعلني أنساها، لكنها عادت للتواصل معي بعد أن حصلت على الدكتوراه، حيث أرسلت لي عدة فيديوهات ملأى بالخزعبلات، من بينها فيديو عن الخسف والدمار الذي يُلحقه الله ببعض الناس .ويبدأ الفيديو هذا بتدمير صالة حفلات أقيم فيها عرس يهودي في القدس، ما جعل الفرح يتحول إلى مأتم .لكن المخرج لا يعرض تفاصيل ما جرى كي يتأكد المشاهد من أن النعوش التي يعرضها هي لضحايا الخسف الذي يعكس غضب الله على اليهود كما يدعي المخرج .إن كل قصة من هذا النوع يقرأها أو يشاهدها إنسان ويجدها ناقصة عليه أن يدرك أنها ناقصة لأنها كاذبة. وهل يمكن أن يعاقب الله يهودا في إسرائيل بعد أن قال"وفضلنا بني إسرائيل على العالمين؟

بعد ذلك يظهر على الشاشة شخص ملتحي، يبدو في منتصف العمر وأمامه كمبيوتر حديث، وكأنه يقدم برنامجا على شاشة تلفزيون كتب في زاوية منها كلمة" الله ."ولما كانت محطات التلفزيون تضع في تلك الزاوية اسمها، فإن كلمة الله هنا توحي للمشاهد أن هذه هي محطة الله الناطقة باسمه، والتي تنقل من عرشه مباشرة .وبعد ذلك يبدأ مقدم البرنامج بعرض فيديوهات لعمارات تنهار أمامنا، وسيارة تقع في حفرة كبيرة، وطابور سيارات تجرفه عاصفة سيول تجري كأنها نهر ثائر .طبعا هناك مئات، إن لم يكن آلاف العمارات التي يتم هدمها كل يوم لأسباب معمارية أو تجارية أو أمنية أو إعادة تخطيط مرورية، وأنه لا يمر شهر من دون حدوث عاصفة وسيول تجرف الأخضر واليابس في مكان ما من العالم، وأنه لا يمر عام واحد من دون وقوع زلزال في بلد من البلاد يدمر الكثير من المباني .وفيما تستمر عملية عرض صور الأحداث هذه، يتحدث مقدم البرنامج عن عظمة الله، وكيف أن الصور المعروضة تثبت أن الله ينتقم من بعض الناس ويخسف الأرض بهم، ويعاقبهم بأقسى أنواع العقاب .ويؤكد مقدم البرنامج هذه الحقيقة بقراءة أكثر من آية من آيات القرآن التي تتحدث عن الخسوف.

كانت المناظر المتتابعة في الفيديو تبدو، كما يحاول المخرج أن يقنع المشاهد، بأنها عمل مهني وإنجاز علمي كبير، كما أن الكاميرات كانت جاهزة، حيث تم وضعها في أفضل مكان لتسجيل الحدث العظيم الذي أمر الله به . لكن كل عاقل يعلم أن الزلازل التي تتسبب في تدمير البيوت والعمران تحدث في كل الحالات فجأة، فكيف كان من الممكن تصوير انهيار البنايات بدقة وبشكل كامل؟ وكيف كان من الممكن تسجيل صورة سيارة تقع في حفرة كبيرة في

وسط الطريق .لكن ما دام أن المحطة التلفزيونية المعنية هي قناة خاصة بالله، فإن كاميرات الله جاهزة دوما، لأنها تتواجد، كوجود الله، في كل مكان وزمان .من أين حصل ذلك المحتال على تلك الصور؟ إن الأفلام السينمائية مليئة بمثلها، ونقل صور الدمار الذي تحدثه الزلازل والعواصف أمر سهل، وتزييف وعي المؤمن الذي تم إغلاق عقله منذ الصغر أكثر سهولة، لأنه جاهز لتصديق الخرافات والأكاذيب المغلفة بغلاف ديني.

وفي فيديو آخر، تظهر صورة فقيه ما يزال شابا في مقتبل العمر ليقرأ حديثا منسوبا إلى الرسول، يقول :من يقول قبل النوم" :لا اله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير مائة مرة غُفرت له ذنوبه وخطاياه ولو كانت مثل زبد البحر ."ومن يبحث عن هذا الحديث، سيجد أنه جاء في الكتب وعلى المواقع المختلفة بعدة صيغ متباينة، لكنها جميعا تصب في نفس المعنى .وهنا نتساءل عما إذا كان هذا الحديث يختلف عن صكوك الغفران التي قامت الكنيسة الكاثوليكية قبل قرون بإصدارها وبيعها للمؤمنين البسطاء والجهلة من أتباعها . وقبل أن نحاول النظر في هذه الإشكالية، نرى أن من الضروري أن نتحدث بإيجاز عن صكوك الغفران.

قامت الكنيسة الكاثوليكية في أوائل القرن السادس عشر بالتوسع في إصدار" صكوك الغفران"، ما جعل بعض المصلحين من رجال الدين المسيحي، ومن بينهم القس مارتن لوثر، يثورون على فكر الكنيسة وممارساتها، ويقومون بحركة إصلاح ديني في أوروبا .ولقد تسببت تلك الحركة في وقوع حروب دينية دامية استمرت بشكل متقطع نحو 80 سنة، وأحدثت دمارا كبيرا في العديد من دول أوروبا .وقد كانت حرب الثلاثين سنة (1648 - 1618) آخر تلك الحروب التي انتهت بتوقيع معاهدة وستفاليا عام1648 ، وذلك بعد أن راح ضحيتها نحو عشرة ملايين إنسان، أي ما يعادل خمس سكان أوروبا حينئذ .وتعني صكوك الغفران، قيام الكنيسة ببيع صكوك تكفل بموجبها نجاة المذنبين من العذاب في الآخرة، وتغفر لهم ما يكونوا قد ارتكبوه من معاصي في الدنيا، وتعدهم بالجنة .ومع بيع صكوك الغفران تمكنت الكنيسة من تكوين ثروات كبيرة استغلت بعضها في تشييد كنائس جميلة في العديد من دول أوروبا مثل إيطاليا وفرنسا وألمانيا، وقامت بإنفاق الكثير من المال على البابوات وأعوانهم، ما جعلهم يتمتعون بحياة ترف دنيوية على حساب المؤمنين، خاصة الفقراء والبؤساء والجهلة منهم .

نعود الآن إلى مناقشة أهمية الحديث المتعلق بذكر الله، والدور الذي يلعبه في تشكيل وعي المؤمن، والتأثير في سلوكياته ومواقفه .إن صكوك الغفران التي أصدرتها الكنيسة مكنتها من تشييد الكثير من الكنائس التي أصبح معظمها فيما بعد متاحف يزورها السياح، وشجعت البابوات ورجالهم على الغرق في بحر من الفساد .لكن صكوك الغفران الإسلامية التي تأتي في صورة أدعية وتوسلات تقوم بترديد اسم الله وتعظيمه فلا تعود على المسلمين بشيء مادي أو معنوي، بل من الممكن أن تعود عليهم بمصائب هم في غنى عنها .إذ من شأن التسبيح أن يقنع أعداداً كبيرة

من المؤمنين بأن بإمكانهم أن يتخلصوا من كافة الخطايا والمعاصي التي يرتكبونها في نهاية كل يوم دون عناء أو ثمن . وهذا يعني أنه لا يوجد شيء يُقارن بسحر وعوائد صكوك الغفران الإسلامية وسهولة الحصول عليها؛ فكل ما هو مطلوب للتخلص من المعاصي هو ترديد ذكر الله .وهذا من شأنه أن يسهم في نشر الفساد في المجتمع على نطاق واسع، وشيوع الازدواجية في السلوك والمواقف، وتشجيع كل مسلم ذا نزعة إجرامية على ارتكاب ما يحلو له من جرائم وعدم التورع عن ارتكاب المعاصي واستغلال الضعفاء والفقراء، لأن تلك الأفعال لن تحسب ضده يوم القيامة، لأنها تكون قد حُذفت من سجله في نهاية اليوم مع ترديد ذكر الله على النحو المذكور أعلاه .

قبل نحو ربع قرن، وكان ابني حينئذ طفلاً، رأينا أن من الواجب ان نرسله إلى مدرسة يتعلم فيها بعض الشيء عن الدين واللغة العربية لأننا كنا وما نزال نعيش في أمريكا؛ لذلك كان يذهب إلى مدرسة خاصة بالجالية كانت تفتح أبوابها ثلاثة ساعات كل يوم أحد من كل أسبوع .لاحظت بعد نحو ثلاثة أسابيع أن الولد كان لا ينام في الليل أحيانا، وأنه كان يصحو في اليوم التالي متعبا، ما جعله يتغيب عن المدرسة .وبعد التفكير في الأمر ومتابعة جدوله الدراسي، اكتشفت أن هذه الحالة لا تحدث إلا بعد درس الدين واللغة، لذلك سارعت إلى إلقاء نظرة على الكتاب المقرر، فوجدت أنه يُقدم الله في صورة غير لائقة، وكأن الله مختص في تعذيب الناس وحرقهم في نار جهنم .لذلك توقفت عن إرسال ابني إلى تلك المدرسة، لأنها لم تكن مدرسة لتدريس مبادئ الدين أو شرح روحه أو أصول اللغة العربية، أو تعويد الأطفال على محبة الله وإطاعة أوامره، وإنما كانت وكرا لإرهاب الأطفال، وتكريس الخوف من الله في قلوبهم، والعمل على إغلاق عقولهم البريئة.

البروفسور محمد ربيع يحمل لقب أستاذ متميز في الاقتصاد السياسي الدولي؛ درس في 5 جامعات، وقام بالتدريس في 11 جامعة في أربع قارات. نشر حتى اليوم 61 كتاباً، 17 باللغة الإنجليزية، وواحد باللغة الألبانية، والباقي باللغة العربية. وتشمل الكتب الإنجليزية أربعة نشرتها دار: Palgrave Macmillan خلال 4 سنوات، 2013-2017 : إنقاذ الرأسمالية والديمقراطية؛ التحول الاقتصادي والثقافي العالمي؛ نظرية في التنمية الاجتماعية الثقافية والاقتصادية المستدامة؛ أزمة الديون العالمية وآثارها الاجتماعية والاقتصادية. أحد الكتب المنشورة بالإنجليزية، وعنوانه "تاريخ العنصرية" تُرجم إلى 6 لغات أخرى: الألمانية والفرنسية والإيطالية والإسبانية والبرتغالية والبولندية. أما الكتب العربية فتشمل 3 مجموعات شعرية، وروايتين، وقصة. والباقي كتب أكاديمية وفكرية وتأملات فلسفية، إضافة إلى عشرات الدراسات العلمية ومئات المقالات الفكرية.

يرأس الدكتور ربيع مجلس الفكر العربي في واشنطن، وعضو منتدى الفكر العربي، وزميل في مؤسسة ألكساندر فون هومبولدت الألمانية منذ عام 1992. وقد استطاع إكمال دراسته بالحصول على منح دراسية منذ المدرسة الثانوية حتى الحصول على الدكتوراه في الاقتصاد عام 1970من جامعة هيوستن في أمريكا. حاز على جائزة دولة فلسطين التقديرية على مجمل الأعمال الفكرية، وجائزة الجالية العربية في مدينة هيوستن للتميز الأكاديمي والقيادة، كما فاز بجائزة في الشعر في مهرجان تيتوفا في ماسيدونيا الجنوبية،

إضافة لعدة جوائز أخرى من جامعات ومؤسسات عربية وأجنبية. وتعكس كتاباته ومواقفه التزاماً بمبادئ السلم والعدالة الاجتماعية والمساواة والحرية والتنمية البشرية، فضلاً عن الاستدامة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والبيئية.

Links that give an idea about me and my interests.

https://scholar.google.com/citations?user=evo_c4QAAAAJ&hl=en&citsig=AMD79op143N3h2Qo7R_hDsZtzBuYxsGi6g

https://www.researchgate.net/profile/Mohamed-Rabie-2

https://www.encyclopedia.com/arts/culture-magazines/rabie-mohamed

Personal site; www.yazour.com